

كيف تُرتَّب مراتب الوجود؟ وما العلاقة بين العالم المادي والعالم العليّ؟

ما دور معرفة مراتب الوجود في فهم موقع الإنسان ضمن نظام الخلق؟ هل عالم الخلق محصورٌ في هذا الوجود المادي الذي نعيش فيه؟ أم أن هناك عوالم ومراتب تسبق الدنيا وتليها؟ أسئلةٌ مثل: من أين جئنا؟ أين نحن الآن؟ وإلى أين نمضي؟ هي من أعمق أسئلة فطرية تخطر في ذهن كل إنسان، مهما اختلفت معتقداته، إذ يسعى كلٌّ بطريقته للإجابة عنها.

تكمُن أهمية هذه الأسئلة في أن الإجابة عنها تقودنا إلى فهمٍ عميقٍ لمراتب الوجود، وتكشف لنا مكانة الإنسان في نظام الخلق. إنّ معرفة مراتب الوجود تساعدنا على إدراك سرّ وجودنا، والمسار الذي نسير فيه، وكيف نبليغ معرفة أنفسنا الحقيقية، ونمنح حياتنا اتّجهاً واضحاً يقربنا من الهدف الأسمى للخلق.

إنّ نظام الخلق له بنيةٌ دقيقة، ومحكمة، وذات طبقاتٍ متناسقة من الأعلى إلى الأدنى. وترتبط كلُّ مرتبةٍ بالأخرى في انسجامٍ دقيقٍ يُظهر عظمة التصميم الإلهي. فهم هذه المراتب لا يقتصر على معرفة العوالم المختلفة، بل يعيننا أيضاً على إدراك موقعنا نحن في هذا النظام الكوني المتكامل.

من المنظور الإلهي، يبدأ نظام الوجود من مرتبةٍ لا يقدر الذهن البشري المادي على استيعابها بسهولة. فالله سبحانه ابتدأ الخلق من نورٍ أول، هو أصل الوجود ومصدر الحقيقة الإنسانية. وقد ورد في الآيات والروايات وصف هذا النور بـ «نور محمد» أو «الروح» أو «العقل»، وهو النور الذي انبثقت منه كلُّ الموجودات، وبه بدأ سفر الخلق. وبحسب آيات القرآن الكريم وأحاديث المعصومين (عليهم السلام)، فإنّ نظام الوجود يتكوّن من مراتب متتابعة هي:

- عالم الجبروت، وهو عالم العقل والقوة؛
- عالم الملكوت، وهو عالم الأرواح والمعاني؛
- ثم عالم الناسوت، أي عالم المادة والنسيان.

والإنسان كائنٌ يسير في هذا المسار من الأعلى نزولاً، حتى يبلغ أدنى مرتبة، وهي الدنيا المادية التي يعيش فيها زمناً يسيراً. غير أنّ ذلك ليس نهاية الرحلة، بل مجرّد محطةٍ في طريق العودة. فبعد مفارقتها للدنيا، تعود الروح لتسلك الطريق صعوداً نحو الأصل والحقيقة والكمال المطلق.

جميع البشر، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين، يحملون في أعماقهم فطرةً تتوق إلى اللانهاية. فالشعور بعدم الاكتفاء بالدنيا، والرغبة في الخلود، وحبّ العلم، والقوة، والجمال اللامحدود — كلّها دلائل على انتماء الإنسان إلى مرتبةٍ أعلى من هذا العالم المادي. ولكن، ما هي تلك العوالم العليا والدنيا السفلى؟ وأين يقع هذا العالم المادي ضمن سلّم الوجود؟ وما خصائص كلّ مرتبةٍ من هذه المراتب؟

في هذا الدرس، سنستعرض مراتب مختلفة للوجود، وبنية كلّ مرتبة، والرؤى المتنوعة حولها، ثم نتأمل في أهمية معرفتها ودورها في كشف سرّ الإنسان ومقصده في نظام الخلق.

بنية مراتب الوجود: من النور المحمدي إلى العالم المحسوس

إنّ معرفة مراتب الوجود من موضوعات جوهرية لفهم نظام الخلق وموقع الإنسان فيه، فكلّ ما في هذا الكون خلق وفق حكمةٍ إلهيةٍ دقيقة، ونُظّم في نظامٍ محكمٍ متناسق. إنّ إدراك هذه البنية هو المفتاح لفهم علاقة الإنسان بالعالم وبخالق سبحانه.

إن بنية مراتب الخلق هي بنية هندسية مُتدرجة، تنطلق من الأعلى إلى الأسفل. ويبدأ هذا النظام بأول فيض إلهي وتجلّ رباني؛ وهو التجلي الذي يُعرف بـ "[المثل الأعلى](#)"، أي أسمى مثالٍ عن الحقّ جلّ جلاله. وفي مصادرنا الروائية، تُوصف هذه الحقيقة بتعابير مختلفة مثل: "الروح"، "العقل"، "القلم"، أو "النور المحمدي" ^١ ومن منبع هذا النور الأوحد، فاضت وتكوّنت جميع الموجودات، من الملائكة إلى الأكوان، حتى بلغت الإنسان. وقد ذهب الحكماء الكبار، كصدر المتألهين (الملا صدرا)، والفيض الكاشاني، وملا هادي السبزواري وغيرهم، إلى أن هذه الأسماء والتعبيرات المتنوعة إنما تصف حقيقة واحدة، ظهرت بأوجه مختلفة، كنور واحد حين يمرّ عبر منشور فيتجزّأ إلى ألوانٍ متعددة. فكلّ مرتبة من مراتب الوجود هي في حقيقتها انعكاس للمرتبة التي تعلوها.

لقد ربّ الله سبحانه نظام الخلق في ثلاثة عوالم رئيسية:

١. عالم الجبروت: وهو عالم المجرّدات والعقل والإرادة والقوة المحضة. يُعرف أيضاً بـ الملكوت الأعلى،

^١ النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَوْرِي»؛ مجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، گردآورنده على اكبر غفاري، هدايت الله مسترجمي و... بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٣٦٨ ش، ج ٥٤، ص ١٧٠

وهو أقوى مراتب الوجود وأصلُ تكوّن مراتب أخرى. هناك أسبقية لعالم الجبروت في الوجود وإحاطةً بكلّ ما دونه من العوالم.

٢. عالم الملكوت: وهو عالم الأرواح والنفوس وصور مثالية ونماذج غير مادية. يُشار إليه في النصوص بأسماءٍ مثل عالم البرزخ أو عالم الخيال المنفصل. درجته في الوجود أضعف من عالم الجبروت، لكنها أقوى من العالم المادي، وله إشرافٌ وهيمنَةٌ عليه.

٣. عالم الناسوت: وهو العالم المادي المحسوس الذي نعيش فيه. يُعدّ الناسوت ظلّاً وصورةً للعوالم العليا، وأضعفها من حيث شدّة الوجود. غير أنّه ميدانُ الامتحان، ومنصّةُ ارتقاء الإنسان نحو المراتب الأعلى. كما يُسمى أيضاً عالم النسيان؛ فعندما تهبط الروح إلى هذا الوجود، تنسى ماضيها العلوي وأصلها الروحي، ولذلك فهي بأمرّ الحاجة إلى التذكير واليقظة. ولهذا يذكّرنا الله في آياتٍ كثيرةٍ بحقيقتنا وغاية وجودنا. ^٢ ومن هنا ندرك أنّ معرفة مراتب الوجود وصفات كلّ عالمٍ منها، تُعين الإنسان على فك قيود النسيان والعودة إلى جذوره الروحية، لتنظيم مسار حياته وفق الغاية التي خُلِق لأجلها.

إنّ بنية مراتب الخلق لا تكشف فقط عن نظامٍ إلهيٍّ بديع، بل تقدّم أيضاً مقياساً لمعرفة مقام الإنسان ومسار تكامله. فالإنسان، بوصفه محور نظام الوجود، مدعوٌ إلى تنمية بُعده الروحي، ليتمكّن من السير في قوس الصعود نحو الكمال، والعودة إلى أصله النوراني الأسمى.

دراسة النسب الرياضية بين مراتب الوجود

جميع مراتب الوجود منظمة وفق نسبٍ رياضية دقيقة تربطها بعضها البعض. وقد جسّد الإمام الصادق (عليه السلام) صيغة هذه العلاقة قائلاً: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ مُلْكُهُ عَلَى مِثَالِ مَلَكُوتِهِ، وَ أَسَسَ مَلَكُوتَهُ عَلَى مِثَالِ جَبْرُوتِهِ لِيَسْتَدِلَّ بِمُلْكِهِ عَلَى مَلَكُوتِهِ وَ بِمَلَكُوتِهِ عَلَى جَبْرُوتِهِ؛" ^٣ يشير هذا القول إلى أن جوهر عالم الجبروت قد شكّل عالم الملكوت، وبالمثل فإن عالم الناسوت والنظام المادي وُلد بناءً على الملكوت. بعبارة أخرى،

^٢ إِنَّا لِلَّهِ وَاِنَّا اِلَيْهِ رَاٰجِعُونَ؛ سورة البقرة، الآية ١٥٦

^٣ منهاج النجاح في ترجمه مفتاح الفلاح، مقدمه ٢، ص ٢٦

الجبروت والملكوت والناسوت هي مراحل متعاقبة لذات الحقيقة الواحدة، ولا يمكن فهمها كمجرد أماكن منفصلة يبدأ فيها أحد العوالم ثم يليها الآخر. فهذه العوالم متداخلة ومتتابعة طولياً، متصلة بروابط جوهرية تعكس وحدة النظام الكوني.

والجذر الوجودي الذي بُنيت عليه كل مراتب الخلق هو النور المحمدي (صلى الله عليه وآله وسلم). ويؤكد القرآن هذا التقدم الإشعاعي بقوله: "الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ" ^٤. فهنا يطرح السؤال: لماذا دُكر تعليم القرآن قبل خلق الإنسان في هذه الآية؟ لمن عَلَّمَ الله القرآن قبل خلق الإنسان؟ تكمن الإجابة في أقوال المعصومين (عليهم السلام)، فقد قال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): "أول ما خلق الله هو نوري" ^٥. وكما أشار الإمام الصادق (عليه السلام)، فقد كان هذا النور موجوداً منذ آلاف السنين قبل خلق الملائكة والإنسان، وكان يعلم الملائكة الذكر والتسبيح. ^٦

تشير هذه الآيات والروايات إلى أن جميع المخلوقات ومراتب الوجود متجذرة في عالم مشعّ بالنور والوعي. وفهم هذه الحقيقة لا يقتصر على النمو الروحي للإنسان فحسب، بل يمنحه أيضاً رؤية دقيقة عن أصل وجوده وغاية خلقه.

مراتب الوجود في القرآن الكريم مقارنة بنظريات علمية وفلسفية

حين نتحدث عن بداية الكون ومراتب الوجود، يتجه ذهن الكثيرين مباشرة نحو الفيزياء والفلك ونظرية الانفجار العظيم (Big Bang) ^٧ بينما الرؤية الإسلامية تُقدم مساراً مُغايراً جذرياً. وفهم هذا الاختلاف يمكن أن يؤثر تأثيراً عميقاً على نظرتنا لنظام الخلق ومراتب الوجود.

فالمنظور العلمي يُلزم نفسه بالانطلاق من "المادة" كنقطة صفر. بينما يرى الفلاسفة أن البداية كانت صدور "العقل الأول" من الخالق. هذه المقاربات تركز على القوانين، القياس، وعلى علاقات سببية مادية. ويكمن مأخذ النقد الديني عليها في أنها تتناسى الحقيقة الباطنية والغاية الروحية من وراء الخلق، وتُغفل علاقة

^٤ سورة الرحمن، الآيات ١-٣

^٥ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام ، الجزء٥٤ ، الصفحة١٧٠

^٦ كُنَّا أَنْوَاراً تُسَبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى وَتُقَدِّسُهُ حَتَّى خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَبِّحُوا فَقَالَتْ أَيْنَ رَبُّنَا لَا عِلْمَ لَنَا فَقَالَ لَنَا سَبِّحُوا فَسَبَّحْنَا فَسَبَّحَتِ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِنَا، بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٥٠

^٧ The Big Bang Theory

الإنسان الأصيله بالله. وفي المقابل، يرى القرآن الكريم والروايات المعصومية أن الخلق يبدأ ب نور النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا بالمادة أو الانفجار! فقبل كل شيء المادي، يذكر القرآن وجود النور، العرش، القلم، اللوح، والروح، كما تشير الروايات إلى أن نور وجود النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أول المخلوقات.

إن الفرق الأساسي بين الرؤية القرآنية والرؤية العلمية والفلسفية هو أن القرآن والروايات لا يعرضان الخلق كحدث علمي بحت، بل كعملية هادفة، معنوية، ذات معنى وغاية. فالمقصود ليس وصف التسلسل العلمي أو الفلسفي للمراتب، بل توضيح أصل الخلق، ومسار الحياة، والغاية النهائية للوجود. يقول الله تعالى في القرآن: "ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً"،^٨ حيث تشير مثل هذه الآيات إلى أن نظام الخلق ليس محض صدفة أو نتيجة نظام طبيعي، بل هو اختبار ودعوة للنمو الروحي، ومسار للعودة إلى الله.

لماذا تُعد معرفة مراتب الوجود مهمة؟

لا ينبغي اعتبار معرفة مراتب الوجود مجرد معرفة نظرية، بل هي حاجة أساسية لفهم مسار التطور واكتشاف طريق العودة إلى الأصل. فبدون أن نعلم من أين أتينا، سنضلّ الطريق إلى العودة، أما عندما نعرف أننا من الله وإليه عائدون، فلن ننظر إلى العالم المادي كغاية حياتنا.

إن معرفة مراتب الخلق لها تأثير عميق على دوافعنا، ورؤيتنا للحياة، وأسلوب عيشنا. فالحياة بلا أفق هي مجرد حياة يومية عادية بلا هدف، أما عندما ندرك أننا مكلفون بالسير في رحلة نحو اللانهاية، فإن كل شيء يكتسب معنى. أي أن معرفة مراتب الوجود هي وسيلة لفهم مكانة الإنسان ضمن نظام الخلق.

الإنسان هو كائن بين الأرض والسماوات، ويمكنه بإرادته أن يرتقي من أدنى مرتبة إلى أعلى قمة معنوية. لذلك فإن فهم نظام الخلق ومراتبه ليس مجرد اعتقاد ديني، بل خريطة للعيش الواعي والهادف. فالإنسان الذي يعرف نفسه يصبح متذكراً، ناشطاً، وممتلئاً بالأمل، لا راكداً ولا يائساً.

ومن آثار جليلة لمعرفة مراتب الخلق، إدراك الإنسان أن جذوره وحقيقته و عائلته السماوية هم محمد وآل محمد (عليهم السلام). هذا الإدراك يمهد الطريق لفهم حقائق النبوة والإمامة. فمتى عرف الإنسان أصل

^٨ و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلاً؛ سورة ص، الآية ٢٧

وجوده، أدرك تلقائياً سر حاجته للمعصومين (عليهم السلام)، وأن سعادته في اتباعهم والافتداء بهم. إن استيعاب مراتب الوجود في نظام الخلق يُغير نظرتنا للكون، ويعلمنا ألا نرى الكون محصوراً في الظاهر والمادة؛ بل نفهم أن لكل ظاهرة جذوراً ممتدة في العوالم العليا. هذا التغيير في الرؤية يدعونا إلى التأمل والسعي نحو الأصل، ويُخبرنا بمكانتنا الحقيقية والهدف الذي نسير نحوه

وباختصار، فإن مخطط الخلق ومراتب الوجود يُختصر فيما نعرفه بـ **"قوس النزول"** و**"قوس الصعود"**، كما أشرنا إليه في الدروس السابقة:

- في قوس النزول: الله، النور المحمدي، عالم الجبروت، عالم الملكوت، وأخيراً عالم الناسوت والدنيا.
- وفي قوس الصعود: العالم المادي، الموت، عالم الملكوت والبرزخ، القيامة، الآخرة الأبدية، والعودة إلى النور المحمدي.

جميع مراتب الخلق مبنية على حقيقة طويلة ورياضية، فالخلق عند الله مشروع هندسي دقيق، حيث كل مرحلة هي جوهر مستخلص من المرحلة السابقة.

في هذا الدرس، تناولنا مراتب الوجود المختلفة: عالم الجبروت أو عالم العقل، وعالم الملكوت أو البرزخ، وعالم الناسوت أو العالم المادي، حيث يتميز كل عالم بخصائصه ووظائفه الفريدة. العالم الذي نعيش فيه هو الأدنى من حيث شدة وتقدم الوجود، لكنه يشكل منصة تمكّن الإنسان من الارتقاء نحو العوالم العليا. هناك آراء متباينة حول مراتب الخلق ونقطة انطلاق الكون. فالرؤية العلمية، وفق نظرية الانفجار العظيم، تحدد البداية بانفجار ذرة مضغوطة، بينما في النصوص الشرعية يُعرّف نور وجود النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كنقطة البداية وأساس الخلق. وهو إقرار يُعزز الإيمان بالنبوة والإمامة.

إن الإمام بهذه المراتب يُمكن الإنسان من تحديد مكانته في نظام الكون، وتوجيه أسلوب حياته بوعي كامل تجاه المبدأ والمسار والمقصد، ليسير نحو غايته بأقصى سرعة وأقل خسارة.

ما هو مدى فهمكم لمراتب الوجود؟ وهل ترون أن هذه المعرفة تُحدث تحولاً في أسلوب حياتكم اليومي؟ نرجو مشاركة آرائكم.